جورب في بِركَةِ ماء...

في صباح يومٍ من الأيام وفيما أنا أمشي في شوارع فانكوفر الكندية، بعد هطول الأمطار الغزيرة، عَبرتُ فَوَقَ بركة ماء أو ما يُعرف بالتجمع المائي الصغير بالكاد يتعدى النصف متر طولاً وعرضاً، ولكن إستوقفني شيء داخل تلك البركة ينظر إلي ببراءة وكأنه طفل صغير يريدني أن أحمله من تلك البركة. لقد شدني جورب صغير لطفلة بالكاد يكون عمرها في حدود الأشهر الأولى من عامها الأول.

وضمن الكُتَل البشرية المتحركة يمنه ويسره من حولي، وأنا أقفُ كالجماد لا أعي ما حولي، كل تفكيري إنصبَ على ذلك الجورب الصغير الغارق في الماء، لقد شدني منظرهُ الحزين. لقد وَضعتُ نفسي في مكانه يَتلقفني تيار الماء من جهه إلى أخرى. لقد رأيت العالم من منظوره الصغير في حجمه و لكن الكبير في معناه.

لقد رأيتُ العالم على حقيقته التي لم أعلمها من قبل أن أضع نفسي في مكان هذا الجورب الذي سَكَنَ هذه البركة لمدة من الزمن، يتحمل أحوال الطقس الباردة و الممطرة. كنتُ أقول لنفسي إن كنتُ مكانه فماذا يمكنني رؤيته من خلال منظوره البسيط؟ ماذا يمكنني رؤيته من تلك البقعة الصغيرة لأحكم على هذا العالم؟ ماذا يمكنني القيام بفعله بعد أن أرى ما أرى؟

العديد من الأسئلة التي أردتُ أجوبه عليها من دون الحاجه للسؤال عن إجابات عنها، ولكن باختبارها و معرفتها بملء إرادتي الذاتية. فما كان مني إلا أني تخيلتُ نفسي هو ذلك الجورب الوردي في تلك البركة السوداء. ما إن وضعتُ نفسي مكانه إلا أحسست بذلك الخطر المحيط بي من كل جانب و الخطر القادم إلي من الأعلى من أقدام الماره من البشر الغير مبالين.

حاولت السباحة في تلك البركة السوداء والتي أحسست معها بالغوص أكثر لقعر البركة كلما تحركت أو إهتزت مياهها الراكدة، حيث تجلب معها طوفان من الموجات البحرية التي تغرقني و تَسلبني حُريتي في السباحه للنجاة من موت مُحَتَم. أما الأقدام القادمةُ من أعلى، فهي تسقط عليَ كالجدران المتهدمة من قصف جوي أو انفجار نووي، لم يكن بمقدوري التحمل أكثر والصمود في وجه الموت المُحَتم علي في الدقائق القادمة.

لم أتحمل من جعل تفكيري يَغرق مع هذا الجورب المسكين، فقمتُ بإعادة نفسي من الجورب إلى جَسَدي المتجمد من البرد و الواقف على أطراف تلك البركة الصغيرة. ما إن رجعتُ حتى ذرفتُ دمعة على مصير الجورب وما سيواجهه من مشاق الحياة للصمود حتى غداً إن استطاع...عدت إلى شقتي ذلك اليوم ولكني لم أستطع أن أُزيحُ ذلك الجورب من تفكيري، فقررت أن أعود مرة أخرى لأرى ذلك الجورب إن استطاع المُضيَ قُدُماً أم لقى حتفه ليلة أمس.

في صباح اليوم التالي مررتُ على نفس البركة وإذ بالجورب ما زال موجوداً يُصارع موجات الحياة الصعبة، فقلت في نفسي: كيف لهذا الجورب الصغير أن يتحمل كل ما يجري له و يبقى على قيد الحياة حتى الآن؟

فلم يكن أمامي سوى أن أَتَلبَس هذا الجورب مرة أخرى، قد أرى فيها مالم أره أول مرة، ولكنني هذه المرة قررتُ أن أصبر على ما سيصيبني من مخاطر، حتى أتعلم شيئاً قد يفيدني في مجابهة حياتي الفعلية، التي اتسمت في الآونة الأخيرة بالكثير من اللغَط والجَدَل حول عدة مفاهيم لدي...نزلتُ من جسدي البشري و ركبتُ موج ذلك الجورب أصارع معه ذبذبات ماء البركة التي لا تكاد تتوقف.

عندما وصلتُ إلى الجورب و تلبستهُ و أصبحتُ هُوَ، نظرتُ من خلال عينيه الصغيرتين إلى العالم من حوله، ذلك العالم الذي لا يرحم ولا يعرف الرحمة، فقد كنتُ أشبه بالصفر على الشمال بالنسبة لكل من مر. فهم لا يعيرونني اهتماماً وكأني غير موجود في هذا الوجود. بدأت أتفحص خياراتي المعدودة، والتي لا تتعدى الاستسلام و الرِضى بما سيقع لي أو الصمود و القتال من أجل غدٍ أفضل...

فقررتُ في لحظتها أني سأصمد و أقاتل من أجل المُستقبل، من أجل أبنائي وأحفادي و من خَلْفَهَم. سأقاتل من أجل أن يعيش العالم بسلام و ألفة. سأقاتل من أجل إحقاق كلمةُ الحق وإبطال كلمةُ الظلم، سأقاتل من أجل البقاء لتعمير العالم لا لتدميره، سأصارع من أجل غدٍ مشرق لا من أجل غدِ مظلم يتلطمهُ الظلم من كل حَدب وصَوب.

إمتلأت روحي الجوربية بالقوة و العزيمة، و أصبحت أرى العالم هو الصغير وأنا الكبير، أصبحت لا أخشى شيء و إنما أشفقُ على من يعتقد أنه قد يَضُرني بشيء، أصبحت أرى العالم بمنظار أوسع و تأملت كل حركة تحدث فيه من شد و جذب، من قتل و اغتصاب، من احتيال و اغتيال. لقد رأيت مالم أره من قبل من قُبح عمل بني البشر والذي قيل عنهم بأنهم أذكى مخلوقات الرب القادر على كل شيء من كلمة كُن فيكون.

أصبحت التيارات المائية لا تعني لي شيءُ الآن، فقد جابهتُها بعزيمة و إصرار من دون الإستسلام، فأصبحت تَعبرني كالنسيم العليل، ولم أعد أَخَف من أقدام من حولي أو فوقي، لِقُدرتي على وضع حدٍ لِخُطواتِهم عندما يَروني. فإستطعتُ أن أقف أمامهم بعز و شموخ يَهابونه لما قد أُقدم عليه من تعثير خُطاهم الغير مدروسة.

بعد ذلك خرجتُ من ذلك الجورب الصغير و عُدتُ إلى جسدي البشري الذي كان مُتَخَشِباً على وقفته، وكأنه صَنَم بوذا حتى عُدتُ إليه و أحييتُهُ من جديد، لقد شعرت بشيء من الغَرابة المبدئية ولكنها سُرعان ما زال، فما كان من ذلك الشعور إلا النَفَس الجديدة التي دَبَت بي من جديد، بعد أن كنتُ في عِداد الموتى قبل كل هذا، فَشُكراً لك أيها الجورب الصغير على كل ما قدمتهُ لي.

منذ أن أصبحتُ ذلك الجورب وأنا قد تغيرتُ إلى شخص أقوى من الناحية الشخصية و النفسية. فلم أعد خائفاً من كلام الناس التافهه أو أقلام الإعلاميين الغير جادين و الحاقدين. لقد صَنَعتُ لنفسي دِرعاً قوياً من الثقة النفسية و العزةُ فيما أقوم به ولا أخاف قول الحق، مهما كانت الوخائم المترتبةُ عليها، فَمُهِمَتي في هذا العالم الواسع أن أُبين الحَق و أَكشِفُهُ للملأ من غير قيدٍ أو شرط.

مشيتُ أُكملُ مسيرتي والتي كانت مُتجِهةُ إلى المكتبة العامة و الواقعة في وسط المدينة أو ما يعرف بِـ الداون تاون، وأنا أتجه إليها كانت نظراتي تَسبَح في فَلَك من الألغاز و الأحاجي المترامية على أرصفة الطريق و التي تريد حلاً لها وبشكل سريع. فما كان مني إلا أن أخرجتُ قلمي و دفتر ملاحظاتي الصغير، و أصبحتُ أدون كل ما أراه بعيني، حيث أصبحت أرى المشاكل أو الألغاز كأرقام تقفز أمام ناظري تريد حلاً.

وبعد أن كتبتُ عدة ألغاز في دفتري، أطبقتهُ وأكملتُ مشواري للمكتبة، فعندما وصلت، ألقيتُ التحية على رجل أمن المكتبة؛ ديريك، جلستُ على كرسي المعروف بجانب النافذة الكبيرة المُطلة على شارع روبسون و ريتشاردز. أخرجتُ دفتر ملاحظاتي الصغير أتفقد ما كتبت. فَمِن غير شعور، تَلَقَفَت يدي اليمنى قلمي و بدأت تَحِلُ هذه الألغاز بشكل مدروس و مُتَعَمِق، فذَهَبَ عقلي معها يُحَلل ويُركِب، يُفسِر و ينقِد، يستغرب و يستعجب ولكنه في نهاية الأمر إستطاع حل مجموعة الألغاز تلك.

وَضَعَت يدي اليمنى القلم بعد أن ضَلَت معه في علاقة شرعية، لمدةٍ لا تقل عن الساعه أو يزيد. أما عقلي، فقد أرخى ظهره للكرسي لبعض الراحة، أما أنا فقد كنتُ في أشد حالاتي غرابة، فأنا لم أشعر بشعور النشوة من قبل ولا شعور المُنتَصرُ في معركة من قبل، ولكني أؤمن بأني شعرت كما شعروا و فرحت كما فرحوا، لقد ارتسمت على وجهي إبتسامة عريضة مُفعَمَةُ بالحياة و الفهم.

أيها الجورب الصغير لقد أنقذتني من حياتي... 27/مارس/2012 – الرياض، العربية السعودية

بقلم: عاصم إبراهيم